الخطاب في قصص الصعاليك

دراسة وصفية تحليلية

الدكتور

محمد سمير عبدالمعطي الديسطي

مدرس الأدب والنقد

بجامعة الأزهر

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه ، وبعد..

لقد اتخذت هذه الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي أداة لتحديد الهدف من دراسة الخطاب في قصص الصعاليك للوصول إلى غاية ذات اتجاهين:

الاتجاه الأول: يتمثل في اختيار مجموعة من قصص الصعاليك وردت في تراثنا العربي القديم متناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والتاريخ والسير والمعاجم... لم تحظ بكتاب يجمعها ولم تتم دراستها على الرغم من تعدد الدراسات التي تناولت شعر الصعاليك وشخصياتهم من جوانب عدة فنية وموضوعية وتاريخية.

الاتجاه الثاني : توظيف الخطاب وآلياته وصيغه المتعددة السردية والوصفية والحوارية للكشف عن القيمة الفنية والموضوعية لقصص الصعاليك لتقديم رؤية متكاملة عن سمات هذه الفئة التي تبنت فكراً متمرداً على سلطة القبيلة وأيدولوجياتها وصنعت خطاباً مضاداً لخطابها السلطوي فانفردت بسمات خاصة تميزها عن غيرها.

حددت الدراسة مادة البحث متمثلة في قصص الصعاليك من العصر الجاهلي حتى آخر عهد بني أمية وذلك لتبني الصعاليك هذه الفترة فكرا أيدولوجيا واحداً ومختلفاً عن أيدولوجية من أطلق عليهم من قبل المؤرخين مسمى صعاليك في العصور التالية لهذه الفترة لاختلاف ظروفهم النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وللوصول لهذه الغاية وأبعادها اتبعت الدراسة الطريقة التالية:

- تحديد مادة الدراسة من العصر الجاهلي حتى آخر عهد بني أمية لتبني الصعاليك في هذه الفترة مفهوماً للصعلكة محدداً ومختلفاً عنه في العصور التالية.
- اختيار مجموعة من قصص الصعاليك المتناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والأخبار والسير واللغة والمعاجم والأمثال.....
- دراسة وصفية لمفهوم الصعلكة وحياة الصعاليك ونشأتهم وأيدولوجياتهم.
- دراسة وصفية للخطاب في الثقافة العربية وتحديد مفهوم تسير عليه الدراسة.
- دراسة تحليلية لصيغ الخطاب في قصص الصعاليك .
- دراسة وصفية تحليلية لمفهوم السرد والراوي ووظيفته وأنواع السرد وشروط كل منها مع تطبيقات على نماذج من قصص الصعاليك.

- دراسة تحليلية لمفهوم العرض وأنواعه متمثلة في الوصف ووظائفه والحوار وأنواعه ووظائفه.

وسعت هذه الدراسة لتحقيق الإجابة عن الأسئلة التالية:

- هل يستطيع الخطاب إظهار سمات قصص الصعاليك؟
- ما مدى تأثير الرواية الشفوية على تشكيل الخطاب؟
- هل للراوي أثر في صيغ الخطاب؟
- هل كان لحياة الصعاليك المتمردة أثر على صيغ الخطاب المتعددة؟
- ما مدى تأثير الزمان والمكان على صيغ الخطاب؟

هذه الافتراضيات التي تقوم عليها الدراسة تحقق الإجابة عليها الأهداف المنشودة منها.

وقد واجه البحث العديد من المشاكل والصعوبات تمثلت فيما يأتي:

- عدم وجود كتاب يجمع قصص الصعاليك فهي متناثرة في بطون أمهات كتب الأدب والأخبار والتاريخ واللغة والمعاجم ودواوين الشعراء وشروحها ويشكل جمعها والاختيار منها صعوبة على الباحث خاصة وأن بعض هذه الكتب لم يتم إعادة طبعها.
- طبيعة القصص ولغتها وأسلوبها وكثرة غريبها مما يشكل صعوبة لدارسها.
- تعدد تعريفات الخطاب وتباينها واختلافها تبعاً لاختلاف وتباين مناهج المنظرين والدراسين له وتوجهات كل منهم.
- صعوبة الحصول على مصادر التراث .
- صعوبة البحث في الموضوع لندرة الدراسات العربية.

وبالله تعالى التوفيق والسداد

تأصيل الخطاب

تأصيل الخطاب في الثقافة العربية:

لابد من النظر إلى هذه الكلمة في بعض معاجم اللغة العربية والقرآن الكريم وكتب الفكر واللغة والأدب.

ورد في معجم اللسان لابن منظور (ت٧١١هـ) ما يساعدنا في الرجوع بالكلمة إلى أصلها اللغوي على امتداد زمني كبير ، كما يجنبنا هذا المعجم مشقة البحث عن دلالة هذا المصطلح في تراثنا الضخم.

وقد ورد في مادة (خ . ط .ب) الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام ، وقد خاطبته بالكلام مخاطبة وخطابًا وهما يتخاطبان، وفصل الخطاب أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده.....

والمخاطبة صيغة مبالغة تفيد الاشتراك والمشاركة في فعل ذي شأن[١] . وفي كتاب الكليات " الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام ، إفهام من هو أهل للفهم . والكلام الذي لا يقصد به إفهام فإنه لا يسمى خطابًا"[٢].

أما في القرآن الكريم فقد وردت صيغة خطب تسع مرات ، وصيغة خطاب ثلاث مرات في قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَابِ﴾ [٣] وفي قوله تعالى :﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾[٤] وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً﴾[٥] ، ويقترن لفظ الخطاب في الآيات الثلاثة السابقة بالعزة والشدة والبأس وبالحكمة وبالعظمة والجلال فيخرج بذلك عن المفهوم اللغوي المتدرج تحت مراجعة الكلام ، أو الكلام الذي يقصد به الإفهام ليرتقي إلى معانٍ سامية بين العزة والحكمة وفصل الخطاب.

---

(١) لسان العرب. ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم (دارة الفكر – دار صادر ، بيروت) خطب.

(٢) كتاب الكليّات. الكفويّ : أبو البقاء الحسيني (مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ت ١٩٩٢م) ص ٤١٩.

(٣) سورة ص : الآية (٢٣)

(٤) سورة ص : الآية (٢٠)

(٥) سورة النبأ الآية (٣٧)

ويورد الزمخشري تفسيراً لفصل الخطاب بقوله " إنه الكلام المبين الدال على المقصود بلا التباس. وقيل معناه أن يفصل بين الحق والباطل ، أي أن يحكم بالبينة[١] وبهذا يكون الخطاب متصفاً بالبيان والتبيان وتجنب الإبهام والغموض واللبس فخلق بذلك تلازما بين مصطلحي كلام وخطاب ، وهذا ما ذهب إليه الآمدي الذي خص الكلام بمعنى الخطاب.[٢]

أما التهانوي فقد ميز بين الكلام عامة والخطاب بوصفه نوعاً من الكلام ، وعرف الخطاب بحسب أصول اللغة على أنه " توجيه الكلام نحو الغير للإفهام"[٣] وأخرج بهذا التعريف لفظ الخطاب من كل ما يعتمد على الحركة والإيحاء والإشارة كوسائل للإفهام ، كما أخرج من الخطاب كل كلام لا يقصد به في الأصل إفهام السامع. [٤]

مفهوم الخطاب عن بعض العرب المحدثين:

اختلفت مفاهيم الخطاب عن العرب المحدثين باختلاف توجهاتهم ومدى تأثرهم بالدراسات العربية التي انتقلت إلى الأدب العربي حاملة معها فروقات واضحة بين الثقافتين وأخرى في فهم الخطاب وتعريفه ، عرف عبدالسلام المسدي الخطاب على أنه: (الكلام أو المقال ، وعده كيانا أفرزته علاقات معينة بموجبها التأمت أجزاؤه)[٥].

أما سعيد يقطين عنده : (هو الطريقة التي تقدم بها المادة الحكائية في الرواية . وقد تكون المادة واحدة لكن ما يتغير هو الخطاب في محاولة كتابتها ونظمها)[٦].

أما محمد مفتاح فالخطاب عنده (حدث مرتبط بزمان ومكان محدد وقع وهو على خلاف الحدث التاريخي لا يمكن أن يعاد...) ويتميز الخطاب من منظور مفتاح بالانغلاق ، أي

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأميل . الزمخشري : أبو القاسم محمد بن عمر ، تح : محمد مرسي عامر (دار المصحف ، القاهرة) ١/ ٨٠ .

(٢) المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين الآمدي : سيف الدين أبو الحسن علي . تحقيق : عبد الأمير الأعسم (بغداد ، ت١٩٨٥م) ص٣٨٥.

(٣) كشاف اصطلاحات الفنون . التهانوي : محمد علي الفاروقي . تح : لطفي عبد البديع (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ت ١٩٧٢م) ٢/١٧٥.

(٤) المرجع السابق

(٥) الأسلوبية والأسلوب . عبدالسلام المسدي (الدار العربية للكتاب ، طرابلس ، ط٣) ص١١٦.

(٦) تحليل الخطاب الشعري . استرجية التناص . سعيد يقطين (المركز الثقافي العربي ، بيروت . الدار البيضاء ، ط٣ ، ت١٩٩٢م) ص١٢.

له بداية ونهاية رغم تداوليته بمعنى أنه وليد أحداث تاريخية واجتماعية ولغوية تتوالد منه أحداث أخرى[1].

وتبعاً لهذا فالخطاب ليس جامداً بل هو متميز ومتحول تبعاً لكل قارئ وهو متواصل مع قارئه لاحتوائه خصائص نفسية واجتماعية وحضارية.

أما نور الدين السد فهو يعرف الخطاب على أنه (خلق لغة من لغة) ، فوسم الخطاب على أنه لغة تمتاز بالتحول والتجدد ، فهي لغة لم تنشأ من عدم ، بل هي وليدة لغة أخرى هي لغة الحياة والمعنى والموقف ... فلا وجود للغة أولى دون اللغة الثانية وهي لغة ثانية على خلاف الأولى (لغة / خطاب)[2]. من خلال تعريفات الخطاب السابقة نلحظ توفر مخرجات القصة فيها ، وخاصة عند محمد مفتاح ونور الدين السد فتظهر من خلال تعريفيهما ملامح الخطاب القصصي كالتالي:

- وجود مخاطب ومخاطب ومادة خطاب.
- يرتبط بزمان ومكان محدد.
- يتميز بالانغلاق – بداية ونهاية- .
- احتوائه أحداث تاريخية واجتماعية.
- هو خلق لغة من لغة.

واقع الصعاليك وقصصهم

تمثل حياة الصعاليك انفصالا عن المجتمع القبلي السائد في العصر الجاهلي بكل تفاصيله الاجتماعية والسياسية والاقتصادية . وقد أسهم بإحداث هذا الانفصال الطرفان على السواء القبيلة والصعاليك . والقبيلة بنظامها الطبقي المبني على فكرة الدم ونقاء اللون والعرق ، والصعاليك بثورتهم وتمردهم ضد هذا النظام الجائر الذي فرض عليهم الحياة على هامش القبيلة وخارج حدود هرمها الذي يجمع شيخها وأبناءها الخلص ومن دخل معهم بالولاء.

---

(١) تحليل الخطاب الشعري . استراجية التناص . محمد مفتاح (بيروت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط٣ ، ت١٩٩٣م) ص١٢٠.

(٢) الأسلوبية وتحليل الخطاب الشعري . نور الدين السيد . (دار هومة : الجزائر) ٦٨/٢.

وقد عانى هؤلاء الصعاليك بسبب هذا التهميش والظلم والضيم وأسر العبودية وذلها . ولم تشفع لهم مخالطة الدم بالزواج كعروة بن الورد[1]. ولا طول المعايشة كالشنفري[2]، لأن الدم لم يكن دمًا قبلياً خالصًا ، وطول المعايشة لم ترق بصاحبها لتُخرجه من عباءة العبودية إلى منزلة أفراد القبيلة وأبنائها. وظلوا كما هم خارج الشرائع والأعراف والتقاليد القبلية محرومين من كل شيء.

وفي ظل هذا الحرمان صور السليك بن سلكة أسباب ثورته فقال في دعاء أثر عنه "اللهم إنك تهيء ما شئت لما شئت ، اللهم إني لو كنت ضعيفاً كنت عبداً ، ولو كنت امرأة كنت أمة ، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة أما الهيبة فلا هيبة"[3].

وذكر عروة بن الورد الأسباب والدوافع لهذه الثورة حين قال مخاطباً زوجته:

دَعيني لِلغِنى أَسعى فَإِنّي ... رَأَيتُ النّاسَ شَرُّهُمُ الفَقيرُ
وَأَبعَدُهُم وَأَهوَنُهُم عَلَيهِم ... وَإِن أَمسى لَهُ حَسَبٌ وَخيرُ
وَيُقصيهِ النَدِيُّ وَتَزدَريهِ ... حَليلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَغيرُ

---

(١) عروة بن الورد بن يزيد بن عبدالله بن ناشب بن هويم بن قطيعة عبس ، من شعراء الصعاليك بل هو أبو الصعاليك وكان من أسباب خروجه اضطهاد أبيه وتفضيل أخيه الأكبر واحتقار قومه له لدنو منزلة أمه في نسبها .

معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي د. عفيف عبدالرحمن (دار المناهل ، بيروت ، ط١ ، ت ١٩٩٤م) ص١٦٤.

شرح ديوان الحماسة "أبو تمام" التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي (علم الكتب ، بيروت) ٧/١.

الأغاني . أبو فرج الأصبهاني (٣٥٦هـ ٥٧٦م) (دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ت ١٤٠٧هـ ، ط١ ، ت ١٩٨٦م) ٣/٨٠-٨٤.

(٢) الشنفري الأزدي ، عاش ونشأ في بني سلامان من بني فهم الذين أسروه ، وهو طفل صغير ، فلما شب عرف بقصة أسره ، حلف أن يقتل منهم رجل لأنهم استعبدوه عرف عنه أنه من اشهر عدائي الصعاليك وأكثرهم دهاء وجرأة ، مات قتيلا على يد أحد بني سلامان.

معجم الشعراء ، ص١٦٧.

للمزيد انظر

شعراء النصرانية قبل الإسلام ، جمع وتنسيق : لويس شيخو (دار المشرق ، بيروت ، ط٤ ، ت ١٩٩١م) ص٨٨٣.

(٣) الأغاني ٢٠/٢٩٠ .

وَيُلفَى ذو الغِنَى وَلَهُ جَلالٌ يَكادُ فُؤادُ صاحِبُهُ يَطيرُ[1]

هذا هو شان الأفراد الذين ظُلموا فإنه أيضاً شأن قبائل لحق الفقر والعوز بأغلب أفرادها ؛ لقسوة البيئة المحيطة بهم[2]. فتكوّن فيها طبقتان ، طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء ؛ وانقسمت هذه الطبقة الأخيرة إلى قسمين : قسم ارتضى الفقر والعيش في كنف الأغنياء والقيام بخدمتهم وقسم رفض الذل والهوان ورفض الفقر والعوز فاندفع للتمرد والثورة ، وانضم إلى ذؤبان العرب وشكل معهم حلقة قوية حاربت حتى قبائلها . يصور ذلك حبيب الأعلم الذي دفعه الفقر والألم للتصعلك فيقول:

وَذَكَرتُ أَهلي بِالعَرا ءِ وَحاجَةَ الشُعثِ التَوالِب
المُصرِمينَ مِنَ التِلا دِ اللامِحينَ إِلى الأَقارِب
وَبِجانِبَي نَعمانَ قُل تُ أَلَن يُبَلِّغَني مَآرِب[3]

ثار هؤلاء جميعاً على هذا النظام الجائر فقوبلت ثورتهم من قبائلهم بالخلع والطرد ، لذلك بحثوا عن مجتمع بديل يفرض نفسه على المجتمع القبلي بالقوة.

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيِّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيَلُ[4]

صنعوا هذا المجتمع ليخرجوا من ظلم القبلية إلى عدالة الإنسانية ، ومن ذل العبودية إلى سماء الحرية حيث يعيش الإنسان محفوظ الكرامة مهاب الجانب . وحرصوا على تحقيق ما فقدوه داخل مجتمعاتهم القبلية من الغنى والعدل والمساواة ، فسعوا كما ذكر الدكتور يوسف خليل "إلى تحقيق صورة من صور العدالة الاجتماعية والتوازن بين طبقتين متباعدتين من

---

(١) ديوانا عروة والسموأل تقديم كرم البستاني (دار صادر ، بيروت ، ط د ، ت ١٣٨٤هـ ، ١٩٥٤م) ص٤٥.

للمزيد انظر :

شعراء النصرانية ، ص٨٨٨.

(٢) شعر الهذليين في مصر الجاهلي والإسلامي د. أحمد كمال زكي (دار الكتاب العربي ، العربي ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ ، ١٩٦٩م) ص١٠

(٣) ديوان الهذليين نسخة مصورة عن طبيعة دار الكتب (الدار القومية ، القاهرة ، ت ١٣٨٤هـ، ١٩٦٥م) ص٢/٨١-٨٢

(٤) ديوانا عروة والسموأل ص٥.

طبقات المجتمع ، طبقة الأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعفاء..."[1] لذا كان مجتمعهم في معظمه اشتراكيا يكفل فيه القوي حق الضعيف والغني حق الفقير ، متخذين من اللصوصية وقطع الطريق والفتك بالأغنياء – خاصة – وسيلة لتحقيق أهدافهم.

وأطلق على هذه الفئة مسميات عدة تدل علي حالتهم من جانب وطبيعة نشاطهم من جانب آخر فهم الصعاليك مشتقة من دلالة الفقر الذي هو سمتهم ودلالة الانعتاق الذي هو وضعهم ، ودلالة القوة التي هي وسيلتهم ، كما تحمل دلالة الاستقلالية والاعتداد بالذات التي هي صفتهم.[2]

كما أنهم هم الذوبان مشتقة من الذئاب[3] لنشاطهم وطبيعة عملهم وغدرهم بالظالمين المغتصبين لحقوق العامة والضعفاء كما أنهم اللصوص والخلعاء والفُتاك والشطار... كل هذه المسميات ومدلولاتها كانت أدوات ووسائل لتحقيق ذواتهم . وإن اتخذوا في العصور التالية للعصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام وعصر بني أمية مفهوما آخر، ومسميات أخرى كالعيّارين... فخرجوا عن مفهوم الصعلكة في بدء ظهورها.

كانت هذه السمات والمدلولات – الفقر الثورة والتمرد ، القوة ، اللصوصية – صفات مشتركة تقاسمها أفراد هذا المجتمع إلى جانب سمات فردية أسهمت في تباين شخصياتهم وتعدد أدوارهم داخل مجتمعهم فكان منهم عروة الصعاليك الذي حقق فكرة التكافل الاجتماعي ومبادئ المجتمع الاشتراكي من خلال فعله ، فانتزع هذه التسمية وانفرد بهذا اللقب فقد قيل:

كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع اشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم – إما مريض يبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته – خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا، حتى إذا أخصب الناس والبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك[4].

وكان منهم سليك المقانب وهو سليك بن سلكه ، نُعت فقيل:

---

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . د يوسف خليف (دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ت ١٩٦٦م) ص١٥٥.

(٢) اللسان / صعلك

(٣) اللسان / ذأب

(٤) الأغاني ٢١/٤٦٦

كان له بأس وشدة.

وقيل :

" وكان أدل الناس بالأرض، وأجودهم عدواً على رجليه لا تعلق به الخيل"

وكان منهم تأبط شراً تحمل تسميته معاني القوة والجرأة ، ونسجت حوله مجموعة من الحكايات المتصلة بالجن والغول والحيّات والأفاعي ، وعنه قيل:

"انه أعدى ذي رجلين ، وذي ساقين ، وذي عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته، حتى يأخذه، فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله[١]. وسئل بما تغلب الرجال يا ثابت ... قال باسمي إنما ساعة ما ألقي الرجل أنا تأبط شرا فينخلع قلبه حتى أنال مما أردت [٢].

في ظل هذا المجتمع نُسجت قصص وحكايات لامست الواقع حينا ، وحلقت في سماء الخيال والأسطورة حينا آخر ، فقد كان منهم العدّاء الذي يسبق الخيل ، والقوي الذي يصارع الجن والغول. وبهذا الواقع والخيال تتحقق في قصص الصعاليك طرفاً طيف القصة[٣]. : التاريخ بأحداثه من جانب والخيال من جانب آخر.

ردد هؤلاء الصعاليك قصصهم ومغامراتهم وبطولاتهم في أشعارهم ، وتغنوا بها في فخر وإعجاب مما شكل مادة قصصية خصبة للرواة ، وقد أشار يوسف خليف إلى ذلك بقوله : "إن الصعاليك هم رواة القصة الشعرية في الأدب العربي"[٤]. وخلفت كتب الأدب بهذا النوع من القصص لارتباطه بالشعر وشروحه شارك في صنع هذه القصص الإخباريون والرواة بالرواية الشفهية أولا ثم التدوين ، فأسقطا على هذه النصوص القصصية شيئاً من ذواتهم وشيئاً آخر من العصر الذي كتبت فيه لذلك نلحظ أن لهذه القصص مستويين:

المستوى الأول : مستوى القصة كتاريخ ينقل لنا الحدث والواقع ضمن نطاق الحوافز التي تدفع حركة الفعل في الشخصيات أو في العلاقات فيما بينها.

---

(١) السابق ٢٠/٤٦٤.

(٢) السابق ٢١/٨٨

(٣) عناصر القصة – روبرت شولتر – ترجمة : محمود منقذ الهاشمي (طلاسي للدراسات والترجمة والنشر ، ت١٩٨٨م) ص٢٣.

(٤) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي : ص١٥٧.

المستوى الثاني : مستوى الرواية أي كلام له وجود مادي تناقله الرواة مشافهة حتى تم جمعه وتدوينه[١].

مصادر قصص الصعاليك

شارك في تدوين قصص الصعاليك وأخبارهم الكتّاب والأدباء والمؤرخون والفقهاء أيضاً لغايات أدبية أو اجتماعية أو فقهية . ذكرهم محمد بن إسحاق الوراق النديم في كتابه "الفهرست" وقد فرغ من تأليفه سنة ٣٧٧هـ فكانت على النحو التالي:

- كتاب السرقة وقطّاع الطرق لمحمد بن حسن المتوفي سنة ١٨٩هـ[٢].
- كتاب الحرّاب واللّصوص للقيط المحاربي المتوفي سنة ١٩٠هـ[٣].
- كتاب لصوص العرب لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفي سنة ٢١٠[٤].
- كتاب الرّاحة ومنافع العيارة لأبي العنبس الصميري المتوفي سنة ٢٥٦هـ[٥].
- كتاب السرقة لأبي سليمان داود علي الأصفهاني المتوفي سنة ٢٧٠هـ[٦].
- كتاب الحيل للمدائني المتوفي سنة ٢٥٥هـ[٧].
- كتاب الحيل للخصّاف ، أحمد بن عمرو والشيباني[٨].
- كتاب حيل اللصوص وكتاب الفتيان وكتاب المكدين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ[٩].
- كتاب أشعار اللصوص لأبي سعيد السكري (الحسن بن الحسين) المتوفي سنة ٢٥٧هـ[١٠].

---

(١) عناصر القصة : ص٢٧ .

(٢) الفهرست . ابن النديم : محمد بن إسحاق الوراق – طبعة مصورة عن طبعة فلوجل (مكتبة خياط ، بيروت) ص٢٠٤ .

(٣) السابق : ص٩٤ .

(٤) السابق : ص ٥٤

(٥) السابق : ص ١٥٢

(٦) السابق : ص٢١

(٧) السابق : ص١٠٤

(٨) السابق : ص ٢٠٦

(٩) دائرة المعارف الإسلامية ، زكي خورشيد (دار الكتاب المصري ، القاهرة) مادة الجاحظ.

(١٠) الفهرست : ص٨٧.

ولكن جميع هذه الكتب والمصادر فُقدت ولم يبق منها إلا إشارات تحيل إلى هذا الكتاب أو ذاك ، من ذلك ما ذكر في الكتاب التالية:

- خزانة الأدب فقد أشار البغدادي في مقدمة كتابه هذا إلى اعتماده على كتاب حيل اللصوص للجاحظ وأشار أيضاً لنقله عن كتاب اللصوص للسكري في حديثه عن عبيد الله بن الحرّ[١].
- الحيوان وقد ذكر فيه الجاحظ عند حديثه عن أحد اللصوص قوله : " ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص ، علمت أنه بعيد عن الكذب والتزويد وقد رأيته وجالسته"[٢].
- الفرج بعد الشدة وقد أفرد فيه القاضي التنوخي باباً قائماً بذاته – الحادي عشر – لقصص اللصوص . وجعل عنوانه متوافقا مع أهداف الكتاب وموضوعه" ومن امتحن من اللصوص بسرق أو قطع ، فعوض من الاتجاع والخلق بأجذل صنع"[٣].
- يتيمة الدّهر وفيه يروي الثعالبي أقاصيص وأحاديث ذات طابع أدبي حين يتحدث عن الشعراء اللصوص[٤].
- الأذكياء وأخبارهم أفرد فيه ابن الجوزي فصلاً تحدث فيه عن أذكياء اللصوص في الباب الثامن والعشرين وقد جعل عنوانه " في ذكر طرف من فطن المتلصصين"[٥].
- محاضرات الأدباء ، أشار الراغب الأصفهاني إلى كتاب اللصوص للجاحظ[٦]. في الفصل الذي كتب فيه عن التلصص وما يجري مجراه.

وبضياع هذه الكتب وفقدها تفرقت المادة القصصية بين مصادر اللغة وقواعدها وغريبها ، وكتب الأدب والأمثال والأخبار والتاريخ والتراجم فقد وجد كل صاحب كتاب منهم في

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، البغدادي : عبدالقادر بن عمر (١٠٣ -١٠٩٣هـ) (دار صادر ، بيروت) ص ١٩/٢-٢٢

(٢) الحيوان . الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (٢١٣ -٢٥٥هـ) دار صعب ، بيروت ، ط٢ ، ت١٩٧٨م) ص٢٩٩/٢.

(٣) الفرج بعد الشدة . التنوخي : القاضي أبو علي الحسن بن علي ش : عبود الشالجي (دار صادر ، بيروت ، ت١٩٧٨م) ٢٧/٤-٢٦٧.

(٤) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – الثعالبي : عبدالملك بن محمد . تح : محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ط٢ ، ت١٩٥٦م) ٣٢٣/٣.

(٥) الأذكياء وأخبارهم . ابن الجوزي (القاهرة ، ط د) ص١٨٦-٢٠٢.

(٦) محاضرات الأدباء. الأصبهاني : الرغب (دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ت ١٩٦١م) ص١٨٩/٣-١٩٤.

هذه القصص والأخبار مقصده من تأليف كتابه ووجد الباحث عن قصص الصعاليك وأخبارهم في الكتب ضآلته . وهي:

- معاجم اللغة كالصحاح للجوهري ، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ، ولسان العرب لابن منظور حيث وردت بعض قصص الصعاليك وأخبارهم في مادة صعلك وذأب وغرب....
- كتب قواعد اللغة كخزانة الأدب للبغدادي فقد ساق فيه قصص الصعاليك وأخبارهم عند ذكر شواهد القواعد اللغوية من شعر الصعاليك الذي يمثل مادة ثرية لغريب اللغة .
- كتب الأخبار الأدبية ومنها الكامل للمبرد ، والأمالي للقالي.
- كتب الأمثال كمعجم الأمثال للميداني الذي ضم أمثالاً للصعاليك وقصة كل مثل.
- كتاب الأغاني وهو من أهم الكتب في الحديث عن الصعاليك وقصصهم وأشعارهم – وإن لم يكن أدقها – فقد أولع أبو الفرج الأصبهاني بطرائف الأخبار وغريبها وفي قصص الصعاليك مادة ثرية تشبع ولعه وتغري بالاستطراد والإفاضة في هذه القصص والأخبار.
- كتابي أشعار الهذليين ، وديوان الهذليين فقد ضما أخبار صعاليك هذيل كأبي خراش والأعلم وصخر الهذلي وما جرى بينهم وبين عدوهم تأبط شراً من قصص وأخبار.
- كتب المختارات من الشعر ، كحماسة أبي تمام وحماسة البحتري ، والمفضليات للضبي وفيها نجد بعضاً من قصص الصعاليك عند ذكر أشعارهم.
- كتب التراجم كالشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزباني نجد تراجم لعدد من شعراء الصعاليك وقليلاً من أخبارهم وبعض قصصهم.
- معجمات الأماكن والبلدان كمعجم ما استعجم ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي. وقد تطرقت هذه المعاجم لقصص الصعاليك وأخبارهم وأشعارهم لاشتمالها على الأماكن نظراً لكثرة تنقلهم وارتيادهم لأماكن نائية.
- ديوان عروة بن الورد وأهم من جمعه ابن السكيت وله شرح عليه ، أورد فيه ترجمة عروة وأخباره والحوادث التي ارتبط بها بعض شعره وهو مطبوع بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة دواوين في مجلد واحد.
- ديوان الشنفري وقد طبع طبعة غير وافية لعدم استيعابها كل ما في النسخة الخطية الموجودة بدار الكتب المصرية.

الخطاب عند الصعاليك

أفرزت الحياة الجاهلية بقسوتها ونظامها القبلي الطبقي خطاباً سلطوياً ، هو نتاج فقدان الأمن في هذه البيئة الصحراوية القاسية ؛ لذلك كان الاعتماد على القوة والسلطة وكان إظهارها أساس حياتهم . وهذا ما يشهد به واقعهم الذي صورته أشعارهم وقصصهم وأمثالهم.

هذا الخطاب السلطوي المحتمي بقوة الجماعة المبنية على نقاء الدم واللون وسلامة العرق ، أنتج خطابا مضادا هو خطاب الثورة والتمرد الذي تتبناه جماعة الصعاليك ، وتعكسه قصصهم المستمدة من طبيعة حياتهم التي كانت مادة خصبة للرواة والإخباريين والشراح.... توافرت في هذه المادة ملامح الخطاب القصصي من جوانب عدة ، نستمدها من تعريف كل من محمد مفتاح ونور الدين السد ، وهما التعريفان اللذان تبنتهما الدراسة سابقا وذلك للأسباب التالية:

- توفر أركان الخطاب الثلاثة في هذه القصص على النحو التالي:-
مخاطب : هو الراوي فقد اعتمدت هذه القصص على المتشافهة قبل مرحلة التدوين.
مخاطب : المروي له .
خطاب : القصة .
- تتميز هذه القصص باستقلال بعضها عن بعض لوجود بداية ونهاية لكل قصة ، على الرغم من ارتباطها جميعها بفكرة الصعلكة
- ترتبط هذه القصص بحقبة تاريخية متشابهة تمتد من العصر الجاهلي إلى نهاية عهد بني أمية وإن كان بعض المؤرخين يرى أنها تمتد إلى عصور متأخرة بمسميات متعددة.
- ترتبط هذه القصص بنظام يعتمد على النظام الطبقي السلطوي الذي كان سببا في ظهورها ومعاناتها النفسية والاجتماعية ، فقبل الصعلكة عبودية وظلم وذل وبعد الصعلكة غربة وعزلة بسبب الثورة على الظلم والعبودية.

لذا انفرد الخطاب في قصص الصعاليك بسمات تميزه عن غيره من الخطابات في هذه الفترة إذ هو نتاج الثورة والتمرد على الخطاب السلطوي النابع من القبيلة ، هو خطاب فئة استمدت قوتها من ضعفها لا من القبيلة ونسبها وترددت هذه القصص قبل تدوينها على ألسنة الرواة حاملة تنوعا واضحا في صيغتها الخطابية.

صيغ الخطاب:

تعني صيغة الخطاب الطريقة التي يتم بواسطتها تبليغ المحكي وإضفاء الطابع التخيلي على النص القصصي[1]. وعلى الرغم من تعدد صيغ الخطاب وتداخلها إلا أنه يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسيين هما:

- السرد
- العرض

ويُناط السرد بالراوي على حين يناط العرض بالشخصيات . وإذا كان الأول منهما السرد – يرتبط بالحركة والفعل وتأثيرهما على الزمن وتغييرهما له ، فإن الثاني منهما العرض – يرتبط بالثبات ، إذ يتشكل منه وصف المكان ومظهر الشخصيات وطبائعها والحد بينهما[2]. ويظهر تأثير الثبات على الزمن من خلال تبطيئه وإيقافه . وبذلك يصبح لكل د وجهتان . وجهة السرد وتشكل الأفعال والأحداث ، ووجهة العرض وتشكل الأشياء والشخص ، وتلتحم الوجهتان مكونة صيغ الخطاب.

صيغ الخطاب

العرض

السرد

وتتسم قصص الصعاليك بسيادة أسلوب السرد على أسلوب العرض ؛ وذلك لا الراوي على الاختزال والإجمال وعدم ميله إلى التفصيل والإطالة ، وهي طبيعة العربي ع ومع ذلك نلحظ أن هذه القصص لا تقوم على الأسلوب السردي الخالص ولا الوصف أو الخالص ، وإنما تتداخل هذه الخطابات مكونة صيغاً للخطاب.

مفهوم السرد

تكشف معاجم اللغة ومنها اللسان في مادة (س ر د) عن دلالة الكلمة على والتتابع يقال : درع مسرودة ، ومسردة بالتشديد فقيل : سردها نسجها – وسرد الصوم

(١) جمالية النص الروائي – مقارنة تحليلية لرواية لعبة النسيان – أحمد فرشوخ (دار الأمان ، الر ت ١٤١٧هـ ١٩٩٦م) ص٥٩.

(٢) السابق

كتب الأدب والشعر والتراجم والسير والطبقات والأمالي والأخبار والمعاجم ... فـ تحول التجربة الذهنية أو المعاشة من أفعال وتخيلات إلى لغة شفوية ثم لغة مكتو من الرموز والعلامات والعناصر الواقعية والبُنيات المتداخلة ، ورغم هذا التحول الذ القصص بعد أن تلبست بصوته ومخيلته تاركا بهذا التلبس أثرا واضحا على مرويات

ولقد تطور الراوي وتنوع منظّري الأدب ونقاده واختلفت نظرتهم إليه باختلاف وأدواتهم فالمدرسة التقليدية منذ أفلاطون إلى هنري جيمس ترى في الروايـ الإنسانية[1] ، فهو إنسان واقعي يعيش بين جمهوره ويرى القصة بلسانه ، ويؤثر فـ ولجهته ونبرته وخياله على مجرى الأحداث وهذا ما كان متعارفا عليه في ظل س الشفاهي.

أما المدرسة البنيوية فقد كانت تنظر إلى الراوي من خلال تمثيلة لموقع خطابي إلا أن هذه المدرسة سرعان ما طبقت فكرة باختين[2] التي تنبه فيها إلى حقي بعد ذلك بنفس[3] صياغة محكمة تتلخص في أن النص القصصي ما هو إلا لغة وأن أي بحث عن أي عنصر فيها ينبغي أن يبدأ من اللغة وبناء على ذلك فإنه لا يم الراوي إلا من خلال الأثر الذي يخلفه حضوره في هذه اللغة المكونة للقصة وبا دراسة الراوي ما هي إلا دراسة للخطاب أي دراسة للوظائف اللغوية التي يتركها وجود الخطاب باعتباره مخاطباً. لذلك يعتبر الراوي هو الصوت الضابط لكل الأصوات . فهـ الناقل لكلام الشخصيات الحاكي له ، وهو القائم بمهام التنسيق والتوليف والتأطير لـ الأصوات واللهجات من التنافر والنشوز إلى التناغم والتآلف ، وقد يناقش كلام الش ويقومه ، ويؤيده أو يعارضه أو يفسره أو يدحضه ، وبذلك يتميز خطاب الراوي عـ الشخصيات ويمكن تلخيص هذه المميزات كتالي:-

- التوفيق بين الخطابات المتنافرة والأصوات واللهجات المختلفة.
- نقل كلام الآخرين نقلا يوهم بأنه حرفي.
- مناقشة كلام الشخصيات (تفسيره أو تطويره أو تقويمه أو دحضه أو تأييد

(١) الراوي والنص القصصي . د. عبدالرحمن الكردي (مكتبة الآداب ، القاهر ، ط١ ت٢٠٠٦م) ص
(٢) السابق
(٣) السابق ص٥٨
(٤) السابق

م في الأشهر الحرم ثلاثة سرد أي : متتابعة وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد
و رجب[1]. ويتفق هذا المعنى المعجمي مع تعريفات السرد في الدراسات الحديثة التي
ه نسيجا من الأحداث تتابع تتابعاً سببياً ويتعلق بالانتقال من حالة إلى حالة أخرى[2].

ويتخذ السرد من اللغة وسيلة له . فهو يحكي السلوك الإنساني والحركات والأفعال
كن ، ويقوم الحكي على دعامتين أساسيتين هما:

أولا : أن يحوي قصة ما ، تضم أحداثا معينة.

ثانيا : أن يعين الطريقة التي تحكى بها القصة وتسمى سردا.

لذلك يفترض وجود شخص يحكي وشخص تُحكى له ، أي وجود تواصل بين طرف
ويدعى راويا أو ساردا وطرف ثان يدعى مرويا له أو قارئا[3].

الراوي	القصة	المروي له

وقد مرت قصص الصعاليك بمرحلة الرواية الشفوية ، وكانت رواياتهم أقرب إلى المادة
بارية في صنيع أقرب للاحتمال أو التصور حتى عندما وصلت مرحلة التدوين والكتابة
ن على أنها تاريخ تسجيلي . لذلك دخلها الوصف ليسجل به هذا التاريخ ، وبما أنها تهتم
فعال فهي سرديات[4]. وقبل الولوج إلى أنواع السرديات لابد من الوقوف على الراوي
شف عن وظائفه في السرد.

السارد أو الراوي : يصنع الكاتب عادة رواياً لقصصه من خياله ، وينسجه بقلمه
رك له.وظيفة الحكي والإخبار والتفسير والتعليق ... ولكن الراوي في قصص الصعاليك ،
غم أنه قام بهذه الوظائف ، لا يعد من صنيعه الكاتب القصصي وإنما هو مؤرخ اقتطع من
اريخ مادة قصصية بأبعاده الواقعية وسياقاتها التاريخية ، عكست هذه القصص والأخبار
ورة واضحة لنمو الأشكال الشفوية المتحولة إلى نص مكتوب مبعثر في حقول شتى وسط

---

١) اللسان / سرد

٢) قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشفهية سعيد يقطين (المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط١ ، ت١٩٩٧م) ص١٤.

٣) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي د. حميد لحمداني (المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط٣ ، ت ٢٠٠٠م) ص٤٥.

٤) قال الراوي ص١٥

من خلال هذه المميزات يرى باختين أن خطاب الراوي ما هو إلا نموذجا للخطابات الموجودة في الحياة يقول : " فالناس في حياتهم اليومي يتكلمون عما يقوله الآخرون ، ينقلون كلمات الغير وآراءه ومزاعمه يتذكرونها ، يزيفونها ، يناقشونها ، يستاؤون منها ، إفقون عليها ، يعارضونه فيما يستشهد بها"(١)

يفة الراوي في قصص الصعاليك

يظهر دور الراوي في النص القصصي من خلال مجموعة من الوظائف يستدل بها على وجوده وتحدد بها معالم شخصيته وتبرز عن طريقها سماته ومعارفه ، لذلك يختلف هذا الدور من راوٍ لآخر تبعا لاختلاف رؤيته للحدث أو الخبر الناقل له ، ومدى علاقته به ويمكن تلخيص هذه الوظائف فيما يلي:-

(١) **وظيفة الحكي والإخبار**:

يفترض الحكي وجود شخص يحكي وشخص يُحكى له أي تواصل بين طرفين طرف أول يدعى راويا وطرف ثانٍ يدعى مروياً له أو قارئا بهدف توصيل الحكاية والتأثير في المخاطب عن طريق السرد ، وينشأ عن ذلك ما يسمى لدى نقاد القصة بمصطلح الخطاب السردي أو الأسلوب الإخباري السردي القائم على التوازن بين حدثين وفعلين وزمانين ، حدث الفعل من ناحية وحدث الإخبار من ناحية أخرى ، ثم زمن الفعل من ناحية وزمن الإخبار عنه من ناحية أخرى ، ثم فاعل الفعل من ناحية وفاعل الإخبار عن هذا الفعل من ناحية أخرى.

ولتوضيح ذلك نسوق مثالاً أورده صاحب الأغاني فقال:

"خرج سليك في الشهر الحرام حتى أتى عكاظ، فلما اجتمع الناس ألقى ثيابه، ثم خرج متفضلاً مترجلاً، فجعل يطوف الناس ويقول: من يصف لي منازل قومه، وأصف له منازل قومي؟ ....."(٢)

يعبر هذا المثال عن حدثين أولهما حدث الخروج الواقع من السليك ، والثاني حدث الأخبار عن الخروج الواقع من الراوي . ونجد أن فاعل الحدث الأول السُليك وفاعل الحدث الثاني راوٍ تعمّد حكاية الخبر وتوصيله لسامع أو لقارئ بغية التأثير فيه . ونلحظ أن زمن الحدث الأول سابق لزمن الحدث الثاني وتالياً له . لذلك اعتمد الراوي على الأفعال الماضية

---

(١) الكلمة في الرواية . ميخائيل باختين . ترجمة : يوسف جلال (منشورات وزارة الثقافة بالجمهورية السورية) ص١٠٨

(٢) الأغاني ٢١/٤٦٦

(خرج ، أتى ، اجتمع ، ألقى ، جعل)) وحضر الفعل المضارع مرتين فقط عندا إسناد القول "يقول" وفي مقول القول "يصف" وبذلك يظهر ، صوت الراوي سارد الحكاية ، مسيطرا على القصة حتى عند إسناد القول غاب صوت القائل أو الشخصية وظهر صوت الراوي أو الحاكي مكانه.

وقد تقوم الشخصية بدور الراوي للحدث فتكون الراوية بضمير المتكلم من ذلك قول تأبط شراً "

"وشر يوم لقيت أني خرجت، حتى إذا كنت في بلاد ثمالة أطوف، حتى إذا كنت من القفير عشيا إذا أنا بسبع خلفات فيهن عبد، فأقبلت نحوه، وكاني لا اريده وحذرني فجعل يلوذ بناقة فيها حمراء، فقلت في نفسي: والله إنه ليثق بها. فأفوق له، ووضع رجله في ارجلها وجعل يدور معها، فإذا هو على عجزها. وارميه حين أشرف فوضعت سهمي في قلبه فخر، وندت الناقة شيئا واتبعتها فرجعت فسقتهن شيئا ..."(١)

فنلحظ بروز ضمير المتكلم المتصل والمنفصل والمستتر والظاهر . من خلال الشخصية المتقمصة لدور الراوي ، والتي كانت محورا رئيسا للأحداث.

(٢) **وظيفة التوثيق**:

يساعد توثيق الراوي للخبر والحكاية على قبول القارئ أو المخاطب بها والاقتناع بصدق أحداثها والتأثر بها وهو الهدف من رواية الخبر أو القصة . ويسقط القبول والإقناع والتأثير لمجرد مظنة الشك وعدم التصديق . ويعتبر ظهور الراوي في القصة ومعرفة القارئ له نوعا من التوثيق فيضفي وجوده صبغة الصدق والواقعية التي تدفع المخاطب لقبولها والتأثر بها.

وللرواة طرق متعددة في إبراز جوانب توثيق مروياتهم منها:

- **الإسناد**:

يلبس راوي القصة طلبا للحقيقة أو الصدق التاريخي قميص راوي الحديث الشريف الثقة الضابط لنصه فيتشابه معه في طريقة روايته وفي عنعنة سنده ، من ذلك ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني قال:

---

(١) السابق

" أخبرني الحسن بن علي ، عن عبدالله بن أبي سعد عن أحمد بن عمر ، عن أبي بركة الأشجعي قال : أغار تأبط – شراً وهو ثابت بن العميثل الفهمي ، ومعه ابن براق الفهمي على بجيلة فأطرد لهم نعما....."[1]

تمر الرواية في هذا الخبر بخمس مراحل طرفاها المتلقي والشاهد.

تمر الرواية في هذا الخبر بخمس مراحل طرفاها المتلقّي والشاهد

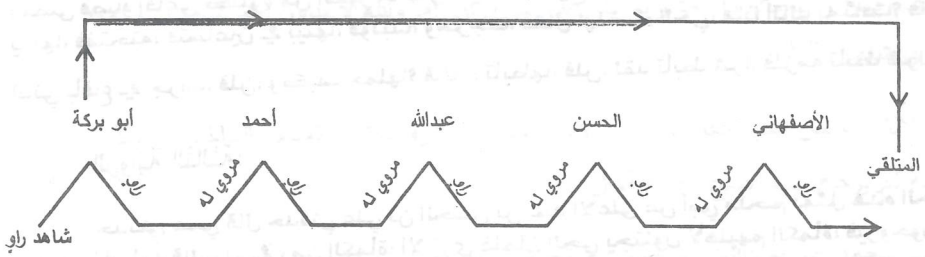

كما قد يضيف الراوي إلى سنده روايته مما تم نسخه من ذلك ما ورد في الأغاني بقوله " نسخت أخبار حاجز من رواية أبي عمر الشيباني من كتاب بخط الكوكبي..."[2]

- **تقصي الخبر وتتبع الروايات:**

يتحرى الراوي الدقة والصدق فيما يرويه من خلال تتبع الخبر أو القصة عند أكثر من راوٍ وقد يختلف محتوى القصة من راوٍ لآخر وقد يتفق الرواة على المحتوى ويكون الاختلاف في التقديم والتأخير والحذف ونحوه . وقد أشار صاحب الأغاني لمنهجه في كتابه عند وجود هذه الاختلافات فقال:

"فأما السليك فأخبروني بخبره الأخفش عن السكري عن أبي حبيب عن ابن الإعرابي قال : وقرئ لي خبره وشعره علي محمد بن الحسن عن الأثرم عن أبي عبيده ، أخبرني ببعضه اليزيدي عن عمه ابن حبيب عن ابن الإعرابي عن المفضل ، وقد جمعت رواياتهم ، فإذا اختلفت نسبت كل مروي إلى راويه"[3]

التزم صاحب الأغاني بهذا المنهج فعندما اختلف الرواة حول سبب تسميته تأبط شراً أورد أربع روايات مختلفة دارت حول هذه التسمية لم يرجح بينها وترك الاختيار للقارئ أو المخاطب وهي:

---

(١) السابق

(٢) السابق

(٣) السابق

وقـــالوا لهـــا: لا تنكحيـــه فإنـــه لأول قـــرن أن يلاقـــي مجمعـــا[1]

أما الأمثال فقد كانت مرآة تعكس طابع الحياة والبيئة ، كما تعكس طابع القوة والاستقلالية والعدوانية التي طبعت الصعاليك وحياتهم . وقد حفلت كتب الأمثال بقصص أمثال ، من ذلك ما ذكره الميداني فقال:

قال المفضل: كان السليك بن السلكة السعدي نائما ، فبينا هو كذلك إذ جثم رجل على صدره ثم قال له: استأسر. فقال له سليك: الليل طويل وأنت مقمر أي في القمر، يعني انك تجد غيري فتعدني فابى، فلما رأى سليك ذلك التوى عليه وتسنمه"(٢) يضرب، عند الأمر بالصبر والتأني في طلب الحاجة.

- **تحديد المكان:**

يفرض المكان حضوره على الحدث القصصي ، وذكر الراوي له وتحديده يجعل الأحداث أكثر واقعية وأقرب للتصور الذهني بالإضافة إلى استبطانه الدلالات المتعددة التي تكشف طبيعة الحدث وأحوال الشخصيات وظروفهم . وقد أكد على هذا د. حميد الحمداني وأشار إلى قول هنري متران الذي يعتبر المكان مؤسسا للحكي لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة[٣].

وفي قصص الصعاليك يعمد الراوي إلى التأطير المكاني ، وجعله مسرحاً تتحرك عليه الشخصيات فيعكس معرفتهم الواسعة بالأماكن كما عكس طابع حياتهم القائمة على عدم الاستقرار وكثرة التنقل . مثال على ذلك ما جاء في الأغاني فقد قال:

اخبرني الحسن بن علي عن عبد الله بن أبي سعد عن أحمد بن عمر عن ابي بركة الأشجعي قال: أغار تأبط شرا - وهو ثابت بن العميثل الفهمي، ومعه ابن براق الفهمي على بجيلة - فأطردا لهم نعما، ونذرت بهما بجيلة، فخرجت في آثارهما ومضيا هاربين في جبال السراة، وركبا الحزن، وعارضتهما بجيلة في السهل فسبقوهما إلى الوهط - وهو ماء لعمرو بن العاص بالطائف – فدخلوا لهما في قصبة العين، وجاءا، وقد بلغ العطش منهما، إلى العين[٤]

---

(١) شرح ديوان الحماسة ٢٦/١

(٢) مجمع الأمثال . الميداني : أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم . تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم (دار الجيل ، بيروت ط د ، ت د) ٥٠/١.

(٣) بنية النص السردية ص٦٥ .

(٤) الأغاني ١٤٢/٢١.

وهكذا نلحظ أن الراوي يحمل المخاطب على التنقل لمتابعة الحدث ، فيصعد الجبل ويهبط الوادي ويشعر بالحذر والريبة والخوف من هذه المجاهل وبذلك تكون القصة أقرب لذهن المخاطب وأكثر واقعية.

(٣) وظيفة الشرح والتعليق والتفسير.

قد يتجاوز الراوي في نقل الأحداث والأخبار وتصويرها إلى التفسير والتعليق والإيضاح ، وبيان الأسباب ونحوه فيظهر بذلك فكر الراوي ومعرفته إلى جانب فكر الشخصيات ومعرفتها. ولذلك تختلف هذه الوظيفة باختلاف الرواة ومدى تدخلهم في البناء القصصي لاختلاف رؤيتهم المبينة لهذه القصة أو الحكاية ، ومدى معرفتهم بالشخصيات والأحداث وبيئة الحدث ، وزمانه.

وفي قصص الصعاليك نلحظ حضور الفقرات الدالة على تدخل الراوي حسب رؤيته للنص والزاوية التي يرى منها القصة . ويأخذ تعليق الراوي طرقا عدة منها:

- التعريف بالشخصية

يذكر الراوي اسم الشخصية ونسبها تمهيدا للقصة التي يرويها جاعلا من هذا التعريف مدخلا لها. ومن قول الراوي:

" تأبط شرا هو ثابت بن جابر بن براق بن فهم ، وفهم وعدوان إخوان ..."(١) "مالك بن الريب بن حوط بن فرط بن حسل بن ربيعة أن كابية بن حر قوص بن مازن بن مالك بن تميم"(٢)

- تحديد شخصيات القصة

وغالبا ما يبدأ القاص بتحديد شخصيات القصة للتعريف بهم من ذلك:

" خرج – تأبط شرا – من عدة فهم فيهم عامر بن الأخنس والشنفري ، والمسيب ، وعمر بن براق ، ومرة بن خلف حتى بيتوا العوص وهم حي من بجبلية فقتلوا نفرا منهم"(٣)

قال المفضل :

زعموا أن سليكا خرج ومعه رجلان من بني الحارث امرئ القيس بن زيد مناة من تميم يقال لهما غترو وعاصم ، وهو يريد الغارة..."(١)

---

(١) ديوان الحماسة ١/٢٦.

(٢) الأغاني ٢٢/٤٦٤.

(٣) السابق ٢١/٩٥.

التتابع الحركي . ولعل هذا الحضور للخطاب السردي وما يتضمنه من حركة تتوافق مع حركة الصعاليك وكثرة تنقلاتهم بسبب القلق والاضطراب والصراع الدائم الذي تتسم به حياتهم وسيادة الخطاب السردي في قصص الصعاليك تعد فارقا عن القصص الشعري الذي يسود فيه أسلوب الوصف أكثر من السرد"[1]

ويتنوع السرد في قصص الصعاليك تبعاً لتنوع مضمونه الذي يصل حياة الصعاليك المتمردة الساخطة الساخرة المستقلة عن حياة القبيلة ونظامها وأعرافها ، فيميل إلى الواقعية أو الفنتازية أو السخرية لذلك نلحظ فيه الواقعية حين يكون الخطاب السردي حاملا من التاريخ أحداثا يصدق التاريخ ذاته عليها ويشهد على واقعيتها عبر علاقة واضحة ودلالات مباشرة لا تحتمل الغموض أو الإبهام ، إلا أنه مع واقعيتها يمكن أن تكون من صنع خيال الراوي ، كما يمكن إدراكها عبر الحواس متظافرة.

ويمكن تلخيص هذه الاشتراطات في الخطاب السردي الواقعي بما يلي :

- حكايته لأحداث حدثت لشخصيات في زمان ومكان عبر لغة سردية .
- إمكانية تحقق الأحداث التى يسردها واقعيا .
- وضوح العلاقات بين الراوي والمروي لهم.
- تناولها – غالبا – عوالم ظاهرة مدركة عبر الحواس"[2]

وقد نلحظ تحول الخطاب عن الواقعية لسرده أحداثا لا يمكن أن تتحقق في الواقع مع احتفاظه ببقية الاشتراطات التي يشتمل عليها الخطاب السردي الواقعي إلا أنه يفقد هذه الواقعية ويتسم عندها بسمات الخطاب الفنتازي (الغرائبي أو العجائبي) فينتزع من البيئة قسوتها ، ومن حياة الصعاليك غير المستقرة وخيالاتهم المضطربة اضطراب حياتهم أحداثا وقصصا وشخصيات من عالم الجن و الغول ونحوها مما لا يتفق مع الواقع وإنما يضرب في عالم الخيال.

كما أن الخطاب قد يتحول عن الواقعية لتضمنه دلالات غير مباشرة فيفقد بذلك وضوح العلاقة بين الراوي والمروي ليصبح خطابا ساخرا يحمل في طياته إلى جانب دلالته ، تخديرا

---

(١) السرد في الشعر العربي استراتيجيات الرؤية وآليات القصص . حاتم الصكر. (آفاق مجلة اتحاد كتاب المغرب ، العدد ٦٦-٦٢- مزدوج ، ت١٩٩٩م) ص٣٧.

(٢) تحولات الخطاب الروائي العربي . عبدالحكيم سليمان المالكي (عالم الكتب الحديث ، الأردن ، ط١ ، ت٢٠٠٦م) ص٦٦٤.

للذات المثقلة بهموم الصعلكة ليخرجها من مآزق الألم والغربة. ومع أي من هذه الخطابات نلحظ حضور خطاب الأجناس فتضم القصة أبيات شعرية تكمل مضمون القصة أو تلخصه.

أنواع الخطاب السردي واشتراطاتها:

الشرط	الواقعي	الفنتازي	الساخر
الأحداث واقعية	✓	x	✓
العلاقة واضحة بين الراوي والمروي له	✓	✓	x
احتمال أن تكون الأحداث لعبية	✓	✓	✓
تناوله عوالم ظاهرة مدركة بالحواس	✓	✓	✓

الخطاب الواقعي :

اعتمد الرواة في مروياتهم عن أخبار الصعاليك وقصصهم على مادة إخبارية نقلت مشافهة ثم دونت كتابة على أنها تاريخ تسجيلي يعبر عن واقعية تتفق بها هذه القصص مع اشتراطات الخطاب السردي الواقعي النابعة من زمن القصة ومكانها وبيئتها وظروف الصعاليك وحياتهم التي اتصلت بقبائل عدة لها وجودها التاريخي الواقعي. بمعنى أن هذه الواقعية لا تنبع من تاريخيتها فقط وإنما من احتوائها أيضا لاشتراطات الخطاب الواقعي. وقد تمثل ذلك في قصة تأبط شراً والشنفري الأزدي وعمرو بن براق مع بجيلة[١] وقصة السليك مع قيس بن مكشوح[٢] ، ومع بني كنانة[٣] ومع الخثعمي[٤] وقصة الأحيمر مع النعمان بن المنذر [٥] وصحبه مالك بن الريب لأبي حربة وشظاظ[٦] وقصته مع سعيد بن عثمان بن عفان والي معاوية على خرسان[٧] وقصة أبي خراش مع أهل مكة[٨] وقصة أبي الطمحان القيني مع يزيد بن عبدالملك[٩] ... فوردت هذه الحقائق التاريخية الاجتماعية في كتب شروح الشعر وكتب

---

(١) ديوان المفضليات ١/٦-٧.
(٢) الأغاني ٢٠/٤٦٤.
(٣) السابق ٢١/٤٧٠.
(٤) السابق ٢١/٤٧١.
(٥) العقد الفريد ٣/٣/٢٨٦ .
(٦) الأغاني ٢١/٤٧٢.
(٧) السابق ٢٠/٤٦٤.
(٨) السابق ٢١/٢٢١ .
(٩) العقد الفريد ٤/٤١.

هكذا نلحظ سيادة خطاب السرد في قصص الصعاليك وتنوعه ليشمل الخطاب الواقعي بأحداثه المرتبطة بشخصيات واقعية وبزمان ومكان محدد . ولعل سيادة حياة القلق والتوتر على حياتهم دفعتهم للتخيل والتهويل مما استدعى ظهور الخطاب الفنتازي كما ظهر الخطاب الساخر المندد بالقبيلة ونظامها السلطوي.

العـــــــــرض

تتداخل الخطابات في قصص الصعاليك وتتجاوز ليمنح كل منهما البناء القصصي مكونات وجوده. إذا كان خطاب السرد بأنواعه خطابا سائدا على هذه القصص لارتباطه بالحركة التي تتفق وتتواءم مع حركة الصعاليك الدائبة وحياتهم غير المستقرة ، فإن تدوين هذه القصص كتاريخ تسجيلي منحها مقومات بنى العرض ، لذلك لم يخل من الوصف والحوار . وقد تضافرت هذه الخطابات وكمل بعضها بعضا لتصنع بناء قصصياً متكاملاً.

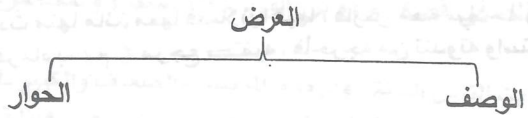

الوصف:

يتشكل الوصف من خلال اللغة كأي عنصر من عناصر مكونات بنية النص القصصي ، فيتكون من جمل وعبارات وتراكيب ودلالات تنصب جميعها في مقطع أو مقاطع متعددة . ويكتسب المقطع الوصفي أهميته من ترابطه ، وعلاقته بالمقاطع الإنشائية الأخرى . وغالبا ما يتدخل هذا المقطع مع السرد والحوار داخل البناء القصصي ليؤدي كل منها دوره في تشكيل المعنى.

وقد قام الوصف الخطابي على دعامتين أساسيتين هما:

- **وظيفة جمالية** : يقوم الوصف فيها بعمل تجميلي ، وهو وصف خالص لا ضرورة له بالنسبة لدلالة الحكي ، وإنما يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية[1] . وهذا النوع من الوصف لم يرد في قصص الصعاليك ولعل ذلك يعود إلى أن هذه القصص ما هي إلا تاريخ تسجيلي يصف حياة الصعاليك ويسرد أخبارهم المعتمدة على التنقل والسرعة والقتال.

---

(١) بنية النص السردي ص٧٩.

- **وظيفة توضيحية أو تفسيرية** : يقوم الوصف فيها بوظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي[1] . ويظهر هذا النوع من الوصف في قصص الصعاليك من خلال صور متعددة من ذلك قصة تأبط شراً مع الغول قيل:

اخبرني الجرمي بن أبي العلاء قال : حدثنا ابو سعيد السكري قال : حدثنا ابن الأثرم ، عن ابيه وحدثنا محمد بن حبيب عن ابي عمرو قالا : كان تأبط شرا يعدو على رجليه ، وكان فاتكا شديدا فبات ليلة ذات ظلمة وبرق ورعد في قاع يقال له رحى بطان ، فلقيته الغول فما زال يقابلها ليلته إلى أن أصبح وهي تطلبه ، قال : والغول سبع من سباع الجن وجعل يراوغها وهي تطلبه وتلتمس غرة منه فلا تقدر عليه إلى أن اصبح . فقال تأبط شرا

الا مَـــن مُبلِـــغٌ فِتيـــانَ فهـــم ... بِمـــا لاقيـــتُ عِنـــدَ رَحـــى بِطـــانِ
بِـــأنّي قـــد لقيـــتُ الغـــولَ تَهـــوي ... بِسَـــهبٍ كالصَـــحيفةِ صَحصَـــحانِ
فقلـــتُ لهـــا كِلانـــا نِضـــوُ أينٍ ... أخـــو سَـــفرٍ فخَلّـــي لـــي مَكـــاني
فشَـــدّت شَـــدّةً نَحـــوي فـــأهوى ... لهـــا كفّـــي بِمَصـــقولٍ يَمـــاني
فأضـــربُها بِـــلا دَهَـــشٍ فخَـــرّت ... صَـــريعا لِليَـــدَينِ وَلِلجِـــرانِ
فقالـــت عَـــد فقلـــتُ لهـــا رُوَيـــدا ... مَكانَـــكِ إنَّـــني ثَبـــتُ الجنـــانِ
فلـــم أنفـــك مُتّكِئـــا عَليهـــا ... لِـــانظرَ مُصـــبِحا مـــاذا أتـــاني
إذا عَينـــانِ في رَأسٍ قبـــيحٍ ... كَـــرَأسِ الهِـــرِّ مَشـــقوقِ اللِسـانِ
وَســـاقا مُخـــدَجٍ وَشَـــواةُ كَلـــبٍ ... وَثَـــوبٌ مِـــن عَبـــاءٍ أو شَـــنانِ[2]

يرتكز النص على بنى متداخلة هي مزيج من السرد والوصف والحوار يكمل كل منهما الآخر في إيصال المعنى . وإذ كان النص قد بدأ بالسرد " كان تأبط شراً ... " فإنه ينتهي بالوصف لكن في قالب شعري

إذا عَينـــانِ فـــي رَأسٍ قَبـــيحٍ ... كَـــرَأسِ الهِـــرِّ مَشـــقوقِ اللِســـانِ
وَســـاقا مُخـــدَجٍ وَشَـــواةُ كَلـــبٍ ... وَثَـــوبٌ مِـــن عَبـــاءٍ أَو شَـــنانِ

وقد ساعد حضور السرد على تفعيل الزمن بمستوييه الماضي والمضارع . وقد انعكس هذا الامتداد الزمني على الصفات لتصبح ممتدة بين الزمنيين فعبارة " كان تأبط شراً يعدو..." تتوسط ما بين الفعل الماضي والمضارع في اسم يحمل معنى الفعل ،تأبط شرا) ليكرس السرد دوره في تحريك الزمن الذي لا يلبث أن يتوقف ليفسح المجال للوصف من خلال شبه الجملة (على رجليه) وهي تبدو أقرب للزيادة في الكلام إذا أن كل من يعدو لابد وأن يعدو على رجليه ، ولكن التركيز عليها ما هو إلا تركيز على ميزة عرفت بها هذه الشخصية وكأنه لا يذكر إلا بمقدرته التي قيل عنها " إن تأبط شراً كان أعدى ذي رجلين ، وذي ساقين وذي عينين..."[3]

---

(١) السابق

(٢) الأغاني ٢١/٩٠-٩١.

(٣) السابق ٢١/٨٧.